البنيوية المفهوم والمقولات

01- مفهوم البنيوية:

لقد عدت البنيوية من المناهج النقدية الحداثية التي أحدثت ثورة في مختلف العلوم الإنسانية خاصة ما أحدثته من تغيير في الدراسات النقدية والأدبية. فما هي البنيوية ؟ وما أهم مقولتها ؟.

لقد تنوعت البنيوية تنوعا مختلفا سواء على مستوى أشكالها أو على مستوى مجالاتها حتى أضحى من الصعب تمييزها وهذا ما يعترف به "جان بياجيه" قائلا: <<إنه من الصعب إيجاد ميزة للبنيوية، ذلك أنها ارتدت أشكالا كثيرة ومتنوعة>> وقد عرض في كتابه البنيوية عددا من البنيويات مثل: البنيوية النفسية واللغوية وغيرهما كثيرة... وجاء في دليل الناقد الأدبي لميجان الرويلي وسعد البازعي مفهوم البنيوية والذي يقول: << ظهرت البنيوية كمنهج ومذهب فكري على أنّها ردة فعل على الوضع (الذري) /.../ الذي ساد العالم الغربي في بداية القرن العشرين(20م). وهو وضع تغذى من وانعكس على تشظي المعرفة وتفرعها إلى تخصصات دقيقة متعددة ثم عزلها عن بعضها عن بعض لتجسيد من ثم/.../ عزلة الإنسان وانفصامه عن واقعه والعالم من حوله /.../ لذلك ظهرت الأصوات التي تنادي بالنظام الكلي المتكامل والمتناسق الذي يوحد ويربط العلوم بعضها ببعض>>.

من خلال هذا التعريف نستشف أن البنيوية منهج ظهر في بداية القرن العشرين يسعى إلى ربط العناصر داخل نظام واحد ودراسة العلاقة بينها من أجل بناء نظام كلي متكامل ومتناسق. تقول "إديث كروزويل": <<البنيوية هي محاول منهجية للكشف عن الأبنية العقلية الكلية العميقة>> فالبنيوية هي طريقة منهجية تحاول القبض على البنى الكلية وطريقة ترابطها وتفاعلها فيما بينها.

إنّ الحديث عن البنيوية يحيلنا إلى اشتقاقها اللغوي الأصلي الذي هو البناء أو البنية وعلى ضوء هذا ما هي البنية ؟

مفهوم البنية

تشتق كلمة البنية من الفعل الثلاثي (بنى) والاسم (البناء) وتعني الهيكل الثابت أو التشييد والتعمير والتركيب والطريقة. وقد استعمل هذا المصطلح في أوروبا منذ القرن السابع عشر (17م) في الميلاد المعماري ليؤدي إلى معنى التشكيل الفني الهندسي.

يعرض"يوسف وغليسي" في مقال له بعنوان البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية تعريفا لمصطلح البنية يقول:<<فإنّ كلمة البنية (structue) بالرسم الفرنسي والإنجليزي الموحد أو(structura) باللاتينية والبناء (construction) /.../ تمتدان إلى الفعل الفرنسيdétruire (بمعنى الهدم والتقويض والتخريب) الذي يمتد إلى الفعل اللاتيني "struere" بمعنى: تنضيد الموارد/.../ أو تأسيس البناء والتشييدBâtir))>> فالبنية في اشتقاقها اللغوي تعني الطريقة والبناء والهيكل والتأسيس للأشياء والهيئة التي يوجد بها الشيء أو يوجد عليها.

إنّ هذه التعريفات المعجمية لا تستوفي المعنى الشافي والكافي للمصطلح إلا بعد إكمال البعد الاصطلاحي له؛ حيث يعرف "جان بياجيه" البنية قائلا: <<مجموعة تحويلات على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقي أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدى حدودها أو أن تستعين بعناصر خارجية. وبكلمة موجزة، تتألف البنية من ميزات ثلاث: الجملة، والتحويلات، والضبط الذاتي>>

كما ينظر "جان بياجيه" إلى البنية على أنّها نسق من التحويلات، علما بأن هذا النسق يظل قائما بفضل الدور الذي تقوم به هذه التحويلات، دون أن تستعين بعناصر خارجية ؛ حيث يتضمن هذا التعريف السمات المميزة للبنية إذ إنّها نسق من التحويلات الداخلية واستقلالية هذا النسق عن العناصر الخارجية وهذا ما يسمح لها بتطورها داخليا. ونلاحظ في نهاية التعريف الخصائص الثلاث (الجملة أو الكلية التحولات، الضبط الذاتي)، ويشرح "زكريا إبراهيم" هذه الخصائص الثلاث فالسمة الأولى (الجملة أو الكلية) تعني: <<إن البنية لا تتألف من عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن ((الكل)) بل هي تتكون من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق.>> فالجملة تعني ذلك التماسك الداخلي لعناصر البنية التي ينظمها النسق. أما الخاصية الثانية (التحولات) فتعني تلك التغيرات الحاصلة داخل البنية التي لا يمكن أن تظل في حالة ثبات دون الاستناد على أي عوامل خارجية. ويعني (التنظيم الذاتي) أن البنية تنظم ذاتها بذاتها دون الاعتماد على أي مرجع خارجها، وهذا ما يضمن بقاءها ويحفظ وحدتها.

ويرى "ليفي شتراوس" أن البنية هي نسق أو نظام فيعرفها بقوله: <<المبدأ الأساسي هو أن مفهوم البنية لا يستند إلى الواقع التجريبي، بل إلى النماذج الموضوعة بمقتضى هذا الواقع وهكذا الإتلاف بين مفهومين متجاورين جدا حيث وقع الالتباس بينهما غالبا أقصد مفهوم البنية الاجتماعية ومفهوم العلاقات الاجتماعية. إنّ العلاقات الاجتماعية هي المادة الأولى المستعملة في صياغة نماذج توضح البنية الاجتماعية، إذ لا يمكن بأي حال إرجاع هذه البنية إلى مجمل العلاقات الاجتماعية التي يتسنى ملاحظتها في مجتمع معين.>> من هذا التعريف يستخلص "الزواوي باغورة" مجموعة من الخصائص أهمها:

- ❖ البنية غير الواقع التجريبي، وإنما هي النموذج من هذا الواقع فالبنية نتعرف عليها انطلاقا من نماذج معينة.
- ❖ البنية متخفية غير مرئية باطنية لا شعورية؛ أي ذات طبيعة عقلية.

وبذلك يجمع "ليفي شتراوس" البنية بالنسق إذ يرى عناصرها المتزنة ثابتة، لكن إذا تعرضت للتبديل والتغيير فإنها تفقد عنصر النسقية ويشترط في ذلك أربعة شروط حتى تستحق اسم البنية تتمثل في :

1. أن تتسم البنية بطابع المنظومة، فهي تتألف من عناصر يستدعي تغير إحداها تغير العناصر الأخرى.
2. كل نموذج ينتمي إلى مجموعة من التحويلات التي يتطابق كل منها نموذجا من أصل واحد بحيث أن مجموع التحولات يشكل مجموعا من النتائج.
3. أن الخصائص المبنية أعلاه تسمح بوجود رد فعل النموذج عند تغير أحد عناصره.
4. يجب بناء النموذج بحيث يستطيع عمله توسيع جميع الوقائع الملاحظة.

من خلال ما سبق تكون البنية<<[عبارة عن نظام أو] نسق من العلاقات الباطنية له قوانينه الخاصة والمحايثة من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي على النحو الذي يفضي فيه أي تغير في العلاقات إلى تغير النسق نفسه>>.

02- مقولات البنيوية:

يتركز الفكر البنيوي على جملة من المقولات أهمها:

أ/ موت المؤلف: إن فكرة موت المؤلف ترتد إلى جذور فلسفية غربية وذلك حين أعلن نيتشه موت الإله لتلاقي هذه الفكرة ترحيبا كبيرا في مجال الدراسات الأدبية والنقدية والفكرية التي عدتها تعبيرا عن اللحظة التاريخية في أوروبا آنذاك. فقد أعلن الأدباء موت الشخصية في المجال الأدبي وموت المؤلف في المجال النقدي.

إن أول مقولة تجسد فكرة موت المؤلف مقولة "رولان بارت" الناقد البنيوي بامتياز حين قال: <<الكتابة قضاء على كل صوت، وعلى كل أصل. الكتابة هي هذا الحياد، هذا التأليف واللف الذي تتيه فيه ذاتيتنا الفاعلة، إنها السواد–البياض الذي تضيع فيه كل هوية، ابتداء من هوية الجسد الذي يكتب>> وبذلك تكون الكتابة عند "رولان بارت" موت للمؤلف، الذي يموت كلمة بعد كلمة إلى أن ينتهي من ذلك فتضيع تلك الذات الفاعلة ؛حيث لا يبقى إلا النص ونسقه المغلق. هذا النسق الذي لا علاقة له بالأشخاص بعيدا عن الذات، إذ أصبح سهما خاطفا يخترق الإنسان.

وجاء في "دليل الناقد الأدبي" أن:<<الأدب لم يعد إبداعا عبقريا يعتمد على قدرة المؤلف الخارقة، بل أصبح صيغة كتابية مؤسساتية تحكمها قوانينها وشفرات تميط اللثام عن هذا ((اللغز)) القار من أفلاطون إلى عصرنا هذا. كما أثرت البنيوية على مفاهيم وظيفة الأدب وطبيعته، فلا هو يحيل إلى العالم الخارجي الطبيعي /.../ ولا هو عبقرية يعتمد على ملفها وصاحبها>>. وبهذا يسقط المؤلف عند الكتابة ليفقد وظيفته لتتبناها الكتابة. فقد عرفت الدراسات اللسانية الأدبية في كافة تنويعاته اللسانية والبنيوية "النقد المحايث" الذي يسعى إلى مقاربة النص الأدبي مقاربة مغلقة البنية ومكتفية بذاتها، لا تحمل إلى الذات المنتجة أو سياق الإنتاج، بل تحيل على اشتغالها الكامن والداخلي فقط، وبذلك يلغى المؤلف والسياق مكرسا تركيزه على النص ولا شيء سواه.

يعرف "منذر عياشي" الكتابة قائلا: <<الكتابة كائن مستقل يسكن الوجود ولا يحاكيه، ويخترق الحياة ويتميز منها يطارح الإنسان لذة و شهوة وينقلب عليه. غيور على نفسه، محب لذاته إلى درجة الأنانية. يجابه. يتحدى السلطات ويعلن عن وجوده بقاء أبديا تتوالد فيه المعارف، فيتصدى بها جدله المستمر، وهو طليق لا ينتمي بتبعية تعبر عن ذاته>>. هكذا يضيع ويغدو المؤلف بين الكتابة ويصبح النص قاتلا متعمدا لا يعترف إلا بنفسه بعيدا عن كل ما هو خارجي وسياقي.

ب/ مقولة الآنية ورفض التاريخ

عرف الدرس اللساني مقولة الآنية (التزامنية) والتاريخية (التعاقبية) الذي أعطى الأولوية للآنية على حساب التعاقبية. وبما أنّ الدرس اللساني من الروافد المعرفية للبنيوية فقد تبنت هذه الأخيرة هذا المبدأ حيث دعت إلى تلك القطيعة مع السياق الخارجي. إذ يرى سوسير لما طور دراسته للغة دراسة آنية حيث تدرسها على أنّها<< جزء واحد من النظام يتزامن مع نفسه>> وبما أن الدراسة الآنية تدرس اللغة كنظام وهذا النظام له بنيات(بنية) ومن خصائصها الشمولية والتحول وتنظيمها الذاتي فإنّ الدراسة التاريخية معيقة لاكتشاف تلك الأنساق ومدى ترابطها وعلاقتها فيما بينها.

ويتحدث زكريا إبراهيم في كتابة "مشكلة البنية" عن التزامنية والتعاقبية بأن الأولى تمثل المحور الأفقي تقوم فيه العلاقات بين الأشياء المتواجدة على أساس ثابت لا يتدخل فيه الزمان، أما التعاقبية فهي المحور الرأسي الذي تقوم فيه العلاقات بين الأشياء المتباعدة على أساس التغير والتبدل التاريخي والزمني، وفي هذه الحالة يكون المحور الأفقي(التزامني) ذا وجهة وصفية تنظر إلى حالة اللغة، والمحور الرأسي ذا وجهة تاريخية تدرس تطور اللغات.

ج/ مقولة النسق

استعمل سوسير مصطلح النسق/النظام ولم يستعمل البنية، ويوجه منهجه بقوله: " وسواء أخذنا الدال أو المدلول فإن اللغة ليست لها أفكارا أو أصواتا سابقة على النسق اللغوي، بل اختلافات فكرية وصوتية تنشأ في النسق".

وبهذا فالنسق هو الذي يوفر إمكانية العلامة، وهو ما يضع النسق في قلب النموذج اللغوي/ المنهج البنيوي ليدرك العلاقات التي تمثل وحدة النسق، فالنسق الفردي هو في مجال اللغة جملة مكتملة تتكون عناصرها من وحدات لغوية صغرى قد تكون أصواتا أو كلمات تكتسب معناها من خلال علاقاتها النسقية من داخلها.

المراجع

1. جان بياجيه: البنيوية، تر: عارف منيمنة وبشير أوبري، ط04، منشورات عويدات، بيروت،لبنان ، 1985م.
2. إديث كريزويل: عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، ط01، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993م.
3. يوسف وغليسي: البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية العربية– بحث في النسبة اللغوية والإصلاح النقدي، مجلة الضاد ع06، 2010، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر.
4. زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، (د.ط)مكتبة مصر، الفجالة، مصر، (د.ت).
5. رولان بارط: درس السيميولوجيا.
6. صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي.